غزوة تبـوك

في رجب سنة ٩ هـ

سبب الغزوة:

وكان السبب في هذه الغزوة ما ذكره ابن سعد وغيره، فقد قالوا:

بلغ النبي ﷺ أن الروم جمعت جموعاً كثيرة، وأجلبت معهم لخم وجذام، وغيرهم من متنصرة العرب، فندب النبي ﷺ إلى الخروج لغزو الروم.

قال ابن إسحاق:

ثُمَّ أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ما بين ذي الحجة إلى رجب، ثُمَّ أمر الناس بالتهيؤ لغَزْوِ الروم.

وذلك في زمان عُسْرة الناس، وشدة من الحر، وجدْب من البلاد، وحين طابت الثمار، والنَّاس يُحبون المُقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشُخُوص على الحال من الزمان الذي هم عليه.

وكان رسول الله ﷺ قلَّما يخرج في غزوة إلاَّ كنَى عنها، وأخبر أنه يريدُ غير الوجه الذي يقصد له، إلاَّ ما كان من غزوة تبوك، فإنه بيَّنها للناس؛ لبُعْد الشُّقة، وشدة الزمان، وكثرة العدو الذي يصْمد له؛ ليتأهَّب الناس لذلك أُهبته.

ومنهم مَن يقول ائذن لي ولا تفتني:

قال رسول الله ﷺ ذات يوم - وهو في جَهَازه - للجّدِّ بن قيس أحدِ بنى سلمة: «يا جَدُّ، هل لك العامَ في جِلاد بنى الأصفر؟»

فقال: يا رسول الله، أوَتَأذَنُ لي ولا تَفْتنِّي؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشدَّ عُجْباً بالنساء منِّى، وإني أخشى إن رأيتُ نساءَ بنى الأصفر أن لا أصبر.

فأعرض عنه رسولُ الله ﷺ، وقال: قد أذنْتُ لك.

ففيه نزلت الآية: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾(١).

وقال قوم من المنافقين بعُضهم لبعض: لا تَنْفِروا في الحَرِّ.

فأنزل الله فيهم: ﴿**لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ**﴾(٢).

ولنا أن نقف هنا وقفةً لنرى تباين مواقف الناس مع الشدائد، ونُبْصِر كيف تكونُ العواقب.

وأمامَنا الآن غزوةُ تَبُوك، وما أنزل الله فيها من قرآن، وما كان للرسول ﷺ فيها من بيان.

وذلك يستوجب أن نرى الأمورَ بنتائجها، ونُبْصرَ الشدائدَ في عواقبها، فإننا - كثيراً - ما نرى أنَّ العقبات أنفع للإنسان من الوَثَبَات؛ لأنها تُعين على مراجعة النفس، وجَعْلها تثبت مع الحق حيث كان.

ومَنْ تدبَّر العواقبَ، وعَرَف قَدْرها، أَيْقَنَ يقيناً - لا شَكَّ فيه - أنَّ الحَقَّ لا يمكن أن يُهْزَم أبداً، فإنَّ العاقبة له ولَمن اعتصَمَ به، فأناب إلى الله وثبت على تقواه.

ولنا أنْ نأخذ الزَّاد الذي نتزوَّد به ونحن نتدبر ما أنزل الله في هذه الغزوة من آيات.

وهي تُحدِّد لنا النتائجَ، وتذكر العواقب لكُلِّ عمل ساءَ أو حَسُنَ، في عاجل قبل أن نراه وافياً في اليوم الآخر.

كانت هذه الغزوة، غزوة تبوك كمَا عَرفنا السَنَة التاسعة من الهجرة، في العام الذي تزاحمت فيه الواجبات من بُعوث ووفود، واتَّسعت وامتدت المسافات

---

(١) التوبة: ٤٩ .

(٢) التوبة:٨١.

فَمَهْمَا وصَفْنَا في أمْر الشدائد وأداء الواجبات، فإنَّ الأمرَ أكبر من كُلِّ وَصْف، وأكثر من كُلِّ عَدٍّ، وكُلُّ ذلك يُؤدَّى دون تَوقُّف.

ومنه نعلم كيف أدرك الصَّفْوة من الخَلْق حكمة خَلْقهم، وغايةَ وُجودهم، ونُدرك ما قامت به المدينة المُنَوَّرَة - في شتَّى الجبهات - من أعمال، وكيف أُعدَّ الرجال الذين أوْفَدَتهم، ليكونوا طلائع حضارة صادقة للإنسانية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ويُخطئ مَن يظُنُّ أنَّ حضارةً مَا - في أيِّ زمن ما - يُمكن أنْ تستغني عن الإرشاد بما جرى مع هؤلاء، وما تمَّ على أيديهم، وما كانوا عليه من صِدْق الإيمان وبِرِّ اليقين، حتى استطاعوا أن يفتحوا للقيَم والأخلاق فَتْحاً كانوا فيه مَثَلاً صادقاً للناس، وهم يَرَوْنَ سُنَنَ الله فيما جرى لهم أو وقع بهم، دون مُحاباة لهم إنْ كانوا مُصيبين أو مخطئين.

فإن القرآن الكريم - الذي حُفظ بحفظ الله - لم يُحفَظْ لهم وحدَهم، وإنَّما حُفظ للعالمين.

فلا عجبَ أن يُحاسَبَ مَن يُؤمن به بميزان الله على كُلِّ تقصير أو تقاعد، دون مُبالغة أو تهوين، حتى يستقرَّ عند الناس - أجمعين - أنَّ الحسابَ للناس ربَّمَا يكون على ما فعلوه في أنفسهم، قبل أنْ يكون على ما فعله فيهم الآخرون.

وفي آيات كثيرة يُخاطَب المؤمنون بما يُعرِّفهم بذلك؛ حتى يكونوا على ثقة أنَّ ما يُلاقونه - في أيِّ موقف كان - إنما هو من عند أنفسهم، قبل أن يكون من كَيْد الآخرين.

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[1].

وعندما تجمَّعوا في المدينة المُنَوَّرَة، وهم على فِقْهٍ بذلك، كانوا أُسْوَةً للمجاهدين الراشدين الفاتحين.

---

(١) الشورى: ٣٠.

وكانوا يطلبون من الله العَوْنَ على أنفسهم، قبل أن يَسألوه النَّصْرَ على عدوِّهم. وكان زادُهم يستمدُونَه من وحي ربِّهم، وهم يُدَوُّونَ بالقرآن - إذا جَنَّ الليلُ - كدَوِيِّ النَّحْل.

ويتعلمون أن لا شيء من أمرهم يمكن أن يُصلح أو يُفيد بغير إخلاص لله وصِدْق يقين.

وكان جماعُ أمرهم ما اشتملت عليه هذه الآية الجامعة التي جعلتهم موحِّدين بالله في جميع أمرهم موحَّدين غير متفرقين:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(١).

وهم يرون دَلالتها - قولاً وعملاً وخُلُقاً - فيمن يقُودهم في كُلِّ شَأن لمرضات الله ربِّ العالمين. صلى الله عليه، وعلى آله وصَحْبه، ومَن اهتدى بهُداه إلى يوم الدين.

وقد كانت غزوة تبُوك - بما أُنزِلَ فيها - بياناً لتفاوت الناس وتباينهم، فكان لابُدَّ من إدراك ما اشتملت عليه من واقع عمليٍّ في آيات تُتْلى على الناس إلى يوم الدين **﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾**(٢).

كانت الغزوة - كما عرفنا - في زمن عُسْرة من الناس، وكان الرسول ﷺ قَلَّما يخرج في غزوة إلاَّ كنَّى عنها، وورَّى بغيرها، إلاَّ ما كان من غزوة تبُوك؛ لبُعْد الشُّقَّة، وشدَّة الزمان.

من هُنا رأينَا مَن اعتذَرَ بفتنة نساءٍ أو شدَّة حَرٍّ، والأمر - في الحالين - يُنبئ عمَّا تُضمره القلوبُ وما تُشْغَلُ به النفوسُ؛ فإنَّ الحَرَّ - الذي يُخشى منه -

(١) الأنعام: ١٦٢، ١٦٣ .
(٢) الأنفال: ٤٢ .

سيأتي ما هو أشدُّ منه، وإنَّ الفتنة التي يُعتذر بها، قد سَقَطَ فيها من زَعَمَ أنَّه يتوقَّاها.

ومن هُنا يُعرَف أنَّ ما في هذه السورة من بيان، يجب ألاَّ تغيب التَّبْصرةُ به في كُلِّ شأن، وهي آخر سورة نزلت من القرآن الكريم، على أرجح الأقوال.

وهي سورة قد نزلت في المُنَوَّرَة باتِّفاق، إلاَّ ما قيل عن الآيتين الأخيرتين، وآياتها: مئة وتسع وعشرون.

وآياتها دالة على ما اشتملت عليه، ولها أكثر من اسم:

«التوبة»: وكفاها أن تُسَمَّى بذلك للآيتين ١١٧، ١١٨.

«برَاءَة»: لافتتاحها بتلك الكلمة ﴿**بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[1].

«الفاضحة»: لأنها فَضَحَت المنافقين، وكَشَفَت وجوهَهم للنبي ﷺ والمؤمنين.

قال ابن عباس: «التَّوْبَةُ هِيَ الْفَاضِحَةُ، مَا زَالَتْ تَنْزِلُ وَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهَا لَنْ تُبْقِيَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلاَّ ذُكِرَ فِيهَا»[2].

«المُبَعْثِرة»: لأنَّها تُبَعْثِرُ أسرارَ المنافقين وتكشفها.

«المُقَشْقِشَة»: لأنها تُبرئ المؤمنَ، فتخلي قلبَه من النفاق.

«البَحُوث»: لأنها تبحث عن نفاق المنافقين.

عثمان بن عفان ونفقته في سبيل الله:

أمَرَ الرسول ﷺ بالجهاز، وحضَّ أهلَ الغنى على النفقة والحُملان في سبيل الله، فحمل رجالٌ من أهل الغنى واحتسبوا.

---

(١) التوبة: ١.

(٢) البخاري - كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٤٥٠٣، مسلم - كتاب التفسير، حديث رقم ٥٣٥٩.

وأنفق عثمان بن عفان رضي الله عنه في ذلك نفقةً عظيمةً لم يُنْفِق أحدٌ مثلَها كانت ثلاث مئة بعير بأحلاسها وأقْتابها وعُدَّتها، وألف دينار عيناً.

أخرج الإمام أحمد عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ:

«جَاءَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِأَلْفِ دِينَارٍ فِي ثَوْبِهِ حِينَ جَهَّزَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشَ الْعُسْرَةِ. قَالَ: فَصَبَّهَا فِي حِجْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُقَلِّبُهَا بِيَدِهِ وَيَقُولُ: مَا ضَرَّ ابْنُ عَفَّانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ، يُرَدِّدُهَا مِرَارًا»(١).

تولوا وأعينهم تفيض من الدمع:

وأرسل أبو موسى أصحابَه إلى رسول الله ﷺ ليحملهم، فوافاه وهو غضبان، فقال: والله ما أحملكم، ولا أجدُ ما أحملكم عليه.

ثُمَّ أتاه إبل، فأرسل إليهم ثُمَّ قال ﷺ:

مَا أَنَا حَمَلْتُكُمْ، بَلِ اللَّهُ حَمَلَكُمْ، وَإِنِّي - وَاللَّهِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ لا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ، فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، إِلاَّ كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي، وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ(٢).

وجاء في الحديث المتَّفق عليه عن أبى موسى الأشعري رضي الله عنه قال:

«أَرْسَلَنِي أَصْحَابِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَسْأَلُهُ الحُمْلاَنَ لَهُمْ إِذْ هُمْ مَعَهُ فِي جَيْشِ الْعُسْرَةِ، وَهِيَ غَزْوَةُ تَبُوكَ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنَّ أَصْحَابِي أَرْسَلُونِي إِلَيْكَ لِتَحْمِلَهُمْ.

فَقَالَ: وَاللَّهِ، لا أَحْمِلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَوَافَقْتُهُ وَهُوَ غَضْبَانُ ولا أَشْعُرُ، وَرَجَعْتُ حَزِينًا مِنْ مَنْعِ النَّبِيِّ ﷺ وَمِنْ مَخَافَةِ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ عَلَيَّ، فَرَجَعْتُ إِلَى أَصْحَابِي فَأَخْبَرْتُهُمِ الَّذِي قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمْ أَلْبَثْ إِلاَّ سُوَيْعَةً

---

(١) أحمد - مسند البصريين، حديث رقم ١٩٧١٣، الترمذي - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٦٣٤، وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

(٢) البخاري - كتاب الأيمان والنذور، حديث رقم ٦١٣٣، مسلم - كتاب الأيمان، حديث رقم ٣١٠٩.

إِذْ سَمِعْتُ بلالاً يُنَادِي: أَيْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ، فَأَجَبْتُهُ، فَقَالَ: أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدْعُوكَ.

فَلَمَّا أَتَيْتُهُ قَالَ: خُذْ هَذَيْنِ الْقَرِينَيْنِ وَهَذَيْنِ الْقَرِينَيْنِ لِسِتَّةِ أَبْعِرَةٍ ابْتَاعَهُنَّ حِينَئِذٍ مِنْ سَعْدٍ، فَانْطَلِقْ بِهِنَّ إِلَى أَصْحَابِكَ، فَقُلْ: إِنَّ اللَّهَ، أَوْ قَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَحْمِلُكُمْ عَلَى هَؤُلاءِ فَارْكَبُوهُنَّ.

فَانْطَلَقْتُ إِلَيْهِمْ بِهِنَّ فَقُلْتُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَحْمِلُكُمْ عَلَى هَؤُلاءِ، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ، لا أَدَعُكُمْ حَتَّى يَنْطَلِقَ مَعِي بَعْضُكُمْ إِلَى مَنْ سَمِعَ مَقَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لا تَظُنُّوا أَنِّي حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا لَمْ يَقُلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ، إِنَّكَ عِنْدَنَا لَمُصَدَّقٌ وَلَنَفْعَلَنَّ مَا أَحْبَبْتَ

فَانْطَلَقَ أَبُو مُوسَى بِنَفَرٍ مِنْهُمْ حَتَّى أَتَوْا الَّذِينَ سَمِعُوا قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَنْعَهُ إِيَّاهُمْ، ثُمَّ إِعْطَاءَهُمْ بَعْدُ، فَحَدَّثُوهُمْ بِمِثْلِ مَا حَدَّثَهُمْ بِهِ أَبُو مُوسَى»[1].

وقد ذَكَرْتُ هذا الحديث لِمَا اشتمل عليه من موقفٍ لأبي موسى يجب أن يُذْكَر، وأن يُدْرَك ما فيه من حرصٍ على الحفاظ على كريم الصفات ومكارم الخلاق، لتبقى المودَّةُ صافيةً، والأُخُوَّةُ واثقةً راشدةً، وساحة النفوس بريئةً مُحَبَّبة

ما كان من عُلبة بن يزيد رضي الله عنه:

وجد بعض صحابة الرسول ﷺ ما يحملهم عليه، وبعضُهم الآخر لم يجد الرسول ما يحملهم عليه، ولم يجدوا هم ما يحملون عليه أنفسَهم، فماذا صنعوا؟

فاسمع ما ورد في هذا الحديث الصحيح عن علبة بن يزيد، وهو ممَّن لم يجد الرسول له، ولم يجد هو لنفسه ما يُحمل عليه.

قام عُلْبَة بن زيد فَصَلَّى من الليل وبكى وقال:

---

(١) البخاري – كتاب المغازي، حديث رقم ٤٠٦٣، مسلم – كتاب الأيمان، حديث رقم ٣١١٠.

«اللهم إنك قد أمَرْتَ بالجهاد ورَغَبْت فيه، ثُمَّ لم تَجْعل عندي ما أتقوَّى به مع رسولك، ولم تجعل في يدِ رسولك ما يَحْمِلُني عليه، وإنِّي أتصدَّق على كل مسلم بكُلِّ مَظْلمةً أصابني فيها من مالٍ أو جسد أو عِرْض»

ثُمَّ أصبح مع الناس، فقال النبي ﷺ:

أين المُتَصدِّق هذه الليلة؟

فلم يَقُم أحدٌ، ثُمَّ قال: أين المتصدِّق؟ فَلْيَقُم.

فقام إليه، فأخبره، فقال النبي ﷺ:

أبْشِر، فوالذي نَفْسُ محمد بيده، لقد كُتبتْ في الزكاةِ المتَقُبَّلة.

الرسول ﷺ يُخلف علياً على المدينة:

ولمَّا أراد رسولُ الله ﷺ الخروجَ خَلَّف عليَّ بن أبى طالب على أهله، فأرجفَ به المنافقون، وقالوا: ما خَلَّفَهُ إلاَّ استثقالاً له وتخففاً منه.

فأخذ عليٌّ رضي الله عنه سلاحَه، ثُمَّ خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجُرْف، فقال: يا نبيَّ الله، زعم المنافقون أنَّك إنَّما خَلَّفتني لأنك استثقلتني وتخفّفْتَ مني.

فقال ﷺ: كذبوا، ولكنّي خَلَّفْتُك لما تركت ورائي، فارجعْ فاخْلُفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى أن تكونَ مني بمنزلة هارون وموسى.. إلاَّ أنَّه لا نبي بعدي؟[1].

فرجع عليٌ رضي الله عنه إلى المدينة.

وقد أخرج البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى تَبُوكَ، وَاسْتَخْلَفَ عَلِيًّا، فَقَالَ: أَتُخَلِّفُنِي فِي الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ؟

قَالَ: أَلا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى؟ إلاَّ أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي[1].

---

(١) مسلم – كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٤١٨.

(٢) البخاري – كتاب المغازي، حديث رقم ٤٠٦٤.

شَأْنُ أبى خيثمة:

قال ابن إسحاق:

ثُمَّ رجع عليٌّ إلى المدينة، ومضى رسول الله ﷺ على سفرة، ثُمَّ إنَّ أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسولُ الله ﷺ أياماً إلى أهله في يوم حَارٍّ، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه[١] قد رشَّت كُلُّ واحدة منهما عريشاً، وبرَّدت له فيه ماءً، وهيَّأت له فيه طعامًا

فلما دخل على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صَنَعَتا له، فقال: رسولُ الله ﷺ في الضَّحِّ[٢] وأبو خيثمة في ظلٍّ بارد، وطعام مهيَّأ، وامرأة حسناء، في ماله مُقيم!! ما هذا بالنَّصف.

ثُمَّ قال: والله، لا أدخل عريشَ واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فَهَيِّئا لي زاداً.

فَفَعَلتا، ثُمَّ قدم ناضِحَهُ فارتحله، ثُمَّ خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبُوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عُمَيْر بنُ وهب الجُمحى في الطريق، يطلب رسول الله ﷺ فترافقا حتى إذا دَنَوا من تبُوك قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إنَّ لي ذنباً، فلا عليك أن تَخَلَّف عني حتى آتي رسول الله ﷺ فَفَعل، حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازلٌ بتبُوك؛ قال الناس: هذا راكب على الطريق مُقبل.

فقال رسول الله ﷺ: كُنْ أبا خيثمة.

فقالوا: يا رسول الله هو والله أبو خيثمة.

فلما أناخ أقبل، فسلَّم على رسول الله ﷺ.

---

(١) حائطه: أي بستانه.

(٢) في الضَّحِّ: أي في الشمس والريح والحرِّ.

فقال له رسول الله ﷺ: «أولى لك يا أبا خيثمة» ومعناها - فيما قال المفسرون -: دَنَوْتَ من الهلكة.

فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير.

قال ابن هشام: وقال أبو خيثمة في ذلك شعراً، واسمُه مالك بن قيس:

لما رأيتُ الناس في الدين نافقوا أتيتُ التي كانت أعفَّ وأكرما

النبي ﷺ والمسلمون في الحِجْر:

قال ابن إسحاق:

وقد كان رسول الله ﷺ بالحِجْر[1] نزلها، واستقى الناس من بئرها، فلما راحُوا قال رسول الله ﷺ:

لا تشربوا من مائها شيئاً، ولا تتوضئوا منه للصلاة، وما كان من عَجِينٍ عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئاً، ولا يخرجَنَّ أحدٌ منكم إلاَّ ومعه صاحب له فَفَعل الناسُ ذلك إلاَّ رجلين من بنى ساعدة، خرج أحدهما لحاجته، وخرج الآخر في طلب بعيره.

فأمَّا الذي خرج لحاجته، فإنه خُنِقَ على مذهبه.

وأمَّا الذي ذهب في طلب بعيره، فاحتملته الريح حتى طرحته بجبلي طيئ

فأُخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال:

أَلَمْ أَنهكُم ألا يخرج أحَدٌ منكم إلاَّ ومعه صاحبه؟!

ثُمَّ دعا للذي خُنق على مذهبه، فَشُفي.

وأما الآخر: فأهدته طيئ لرسول الله ﷺ حين قَدِم المدينة.

---

(١) الحجر: واد بين المدينة والشام، وأصحاب الحجر هم (ثمود) قوم صالح - عليه السلام.

والذي في صحيح مسلم من حديث أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ:

«فَلَمَّا أَتَيْنَا تَبُوكَ قَالَ أَمَا إِنَّهَا سَتَهُبُّ اللَّيْلَةَ رِيحٌ شَدِيدَةٌ، فلا يَقُومَنَّ أَحَدٌ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُ بَعِيرٌ فَلْيَعْقِلْهُ، فَعَقَلْنَاهَا وَهَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ فَقَامَ رَجُلٌ فَأَلْقَتْهُ بِجَبَلِ طَيِّءٍ...»[(١)].

قال ابن هشام: بلغني عن الزُّهري أنه قال:

لَمَّا مَرَّ رسول الله ﷺ بالحجر سجَّى ثوبه على وجهه واستحثَّ راحلته ثُمَّ قال:

لا تدخلوا بيوت الذين ظَلَموا أنفُسَهم إلاَّ وأنتم باكُون؛ خَوْفاً أن يصيبكم ما أصابهم.

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: لا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلاءِ الْمُعَذَّبِينَ إلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فلا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، لا يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ[(٢)].

وفي صحيح البخاري: «أنه أمرهم بإلقاء العجين وطرحه»[(٣)].

قال ابن إسحاق:

وأصبح الناسُ ولا ماء معهم، فَشَكَوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فدعا رسولُ الله ﷺ فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء.

ناقة رسول الله ﷺ وحديث المنافقين:

قال ابن إسحاق:

ثُمَّ إن رسول الله ﷺ سار حتى إذا كان ببعض الطريق، ضَلَّتْ ناقتُه، فقال زيدُ بنُ اللُّصَيْبِ - وكان منافقاً -:

---

(١) البخاري - كتاب الزكاة، حديث رقم ١٣٨٧.

(٢) البخاري - كتاب الصلاة، حديث رقم ٤١٥، كتاب أحاديث الأنبياء، حديث رقم ٣١٢٩، ٣١٣٠، كتاب المغازي، حديث رقم ٤٠٦٨، كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٤٣٣٣.

(٣) البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء، حديث رقم ٣١٢٧.

أليس يَزْعُمُ أنه نبي ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدرى أين ناقته؟

فقال رسول الله ﷺ: إن رَجُلا يقول: وذكر مقالته، وإني - والله - لا أعْلَمُ إلاَّ ما علَّمني الله، وقد دَلَّني الله عليها، وهي في الوادي في شِعْب كذا وكذا، وقد حَبَسَتها شَجرةٌ بِزِمامها، فانطَلِقُوا حتى تأتوني بها. فذهبوا فأتَوا بها.

شأن أبى ذر رضي الله عنه وقصة وفاته:

ثُمَّ مضى رسولُ الله ﷺ فجعل يتخلَّف عنه الرجلُ فيقول ﷺ:

دَعُوهُ، فإن يَكُ فيه خيرٌ فَسَيُلحِقُه الله بكم، وإن يَكُ غير ذلك فقد أراحكم الله منه.

حتى قيل: يا رسول الله، قد تَخَلَّف أبو ذر وأبطأ به بعيرُه.

فقال: دعوه، فإن يك فيه خير فَسَيُلْحِقُه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه، وتَلَوَّ على أبى ذر بعيرُه فلما أبطأ عليه أخذ متاعه على ظهره، ثُمَّ خرج يتبعُ أثرَ رسول الله ﷺ ماشيًا.

ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسولَ الله، إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ: كُنْ أبَا ذَرٍ.

فلمَّا تأمله القومُ قالوا: يا رسول الله، والله هو أبو ذر.

فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا ذر، يمشى وحدَه، ويموت وحدَه، ويُبعثُ وحده»[1].

وذكر أبو حاتم بن حبان في صحيحه وغيرُه، في قصة وفاة أبى ذر عن مجاهد عن إبراهيم بن الأشتر عن أبيه، عن أُمِّ ذَرٍّ قالت:

---

(١) الثقات: ٢/٩٤.

لما حَضَرَتْ أبا ذرٍّ الوفاةُ بكيتُ، فقال: ما يُبكيك؟

فقلت: ما لي لا أبكى وأنت تموتُ بفَلاة من الأرض، وليس عندي ثوبٌ يَسَعُك كفناً، ولا يُدانُ لي في تَغَيُّبك؟!

قال: أبشري ولا تبكى فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول لنَفَرٍ أنا فيهم: «ليمُوتَنَّ رجلٌ منكم بفَلاةٍ من الأرض، يشهده عصابةٌ من المؤمنين» وليس أحدٌ من أولئك النفر إلاَّ وقد مات في قريةٍ وجماعةٍ، فأنا ذلك الرجل، فوالله ما كَذَبْتُ ولا كُذبت، فأبصري الطريق.

فقلتُ: أنَّى وقد ذهب الحاجُّ وتَقَطَّعت الطُّرق؟!

فقال: اذهبي فَتَبَصَّري.

قالت: فكُنْتُ أُسْنِدّ إلى الكَثيب أتَبَصَّر، ثُمَّ أرجع فأُمرضه، فبينا أنا وهو كذلك، إذ أنا برجالٍ على رحالهم كأنهم الرَّخَمُ[1] تَجُبُّ بهم رواحِلُهُم

قالت: فأشرتُ إليهم، فأسرعوا إليَّ حتى وقفوا عليَّ فقالوا: يا أمةّ الله مالَكِ؟

قلتُ: امرُؤٌ من المسلمين يموتُ، تُكفِّنونه؟

قالوا: ومن هو؟ قلت: أبو ذر، قالوا: صاحبُ رسول الله ﷺ؟

قلت: نعم، ففدوه بآبائهم وأمهاتهم، وأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه، فقال لهم: أبشروا، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لنفرٍ أنا فيهم: ليمُوتَنَّ رجلٌ منكم بِفَلاةٍ من الأرض، يَشْهدُه عصابةٌ من المؤمنين.

وليس من أولئك النفر رجل إلاَّ وقد هلك في جماعة، والله ما كَذبتُ ولا كُذِبت.

---

(١) الرَّخَمُ: نوع من الطير.

إنه لو كان عندي ثوبٌ يَسَعُنِي كفناً لي أو لامرأتي، لم أكَفَّن إلاَّ في ثوب هو لي أو لَها.

فإني أُنشدكم اللّه أن لا يُكَفَّنني رجلٌ كان أميراً أو عَرِيفاً أو بريداً أو نقيبًا

وليس من أولئك النفر أحدٌ إلاَّ وقد قارف بعض ما قال، إلاَّ فتىً من الأنصار قال: أنا يا عَمُّ، أكفِّنُكَ في ردائي هذا، وفي ثوبين من عَيْبَتِي من غزل أُمِّي.

قال: أنت فكفِّني فَكَفَّنَه الأنصاري وقاموا عليه، ودفنوهُ في نفرٍ كلهم يمان(١).

تخذيل المنافقين للمسلمين وما نزل فيهم:

وقد كان رهط من المنافقين منهم: وديعةُ بن ثابت، أخو بنى عمرو بن عوف، ومنهم رجل من أشجع حليف لبنى سَلَمَة، يُقَال له مُخَشِّن بن حُمَيِّر، يُشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضُهم لبعض:

أتَحْسَبُون جلاد بنى الأصفر كجلاد العرب بعضهم بَعْضاً، والله لَكَأنا بكم غداً مقرَّنين في الحبال، إرجافاً وترهيبا للمؤمنين.

فقال مُخَشِّن بن حُمَيِّر: والله لوددتُ إني أقاضَى على أن يُضرَب كُلُّ رجل منا مئة جلدة، وإنا نَنْفَلِتُ أن ينزل فينا قرآنٌ لمقالتكم هذه.

وقال رسول الله ﷺ لعمَّار بن ياسر:

أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فَسَلْهم عما قالوا، فإن أنكروا فَقُلْ: بل قلتم كذا وكذا.

فانطلق إليهم عَمَّارٌ، فقال لهم ذلك، فأتوا رسولَ الله ﷺ يعتذرون إليه

فقال وديعةُ بن ثابت: كنا نخوضُ ونلعب.

---

(١) صحيح ابن حبان: ٥٨/١٥، المستدرك على الصحيحين ٣٨٨/٣.

فأنزل الله فيهم ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ**﴾[1].

فقال مُخَشِّن بن حُمَيّر: يا رسول الله، قعد بي اسمي واسم أبى، فكان الذي عُفي عنه في هذه الآية، وتَسَمَّى عبدالرحمن، وسأل الله أن يُقْتَل شهيداً لا يُعْلَم بمكانه، فَقُتِل يوم اليمامة، فلم يُوجَد له أثرٌ.

أَمْرُ الماء في تبُوك:

ذكر ابن عائذ في مغازيه أنَّ رسول الله ﷺ نزل تبُوك في زمانٍ قَلَّ ماؤها فيه، فاغترف رسولُ الله ﷺ غَرْفَةً بيده من ماء، فَمَضْمَضَ بها فَاه، ثُمَّ بَصَقَهُ فيها، فَفَارتْ عَيْنُها حتى امتلأت، فهي كذلك حتى السَّاعة.

وفي صحيح مسلم أنه ﷺ قال قبل وصوله إليها:

«إِنَّكُمْ سَتَأْتُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَيْنَ تَبُوكَ، وَإِنَّكُمْ لَنْ تَأْتُوهَا حَتَّى يُضْحِيَ النَّهَارُ، فَمَنْ جَاءَهَا مِنْكُمْ فلا يَمَسَّ مِنْ مَائِهَا شَيْئًا حَتَّى آتِيَ فَجِئْنَاهَا وَقَدْ سَبَقَنَا إِلَيْهَا رَجُلانِ - وَالْعَيْنُ مِثْلُ الشِّرَاكِ تَبِضُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاءٍ - قَالَ: فَسَأَلَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَلْ مَسَسْتُمَا مِنْ مَائِهَا شَيْئًا؟ قَالا: نَعَمْ، فَسَبَّهُمَا النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ لَهُمَا: مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ

قَالَ: ثُمَّ غَرَفُوا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْعَيْنِ قَلِيلاً قَلِيلاً حَتَّى اجْتَمَعَ فِي شَيْءٍ، قَالَ: وَغَسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهِ يَدَيْهِ وَوَجْهَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِيهَا، فَجَرَتِ الْعَيْنُ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ، أَوْ قَالَ: غَزِيرٍ شَكَّ أَبُو عَلِيٍّ أَيُّهُمَا قَالَ، حَتَّى اسْتَقَى النَّاسُ، ثُمَّ قَالَ: يُوشِكُ يَا مُعَاذُ، إِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ أَنْ تَرَى مَا هَاهُنَا قَدْ مُلِئَ جِنَانًا»[2].

---

(١) التوبة: ٦٥، ٦٦.

(٢) مسلم - كتاب الفضائل، حديث رقم ٤٢٢٩.

وفاة ذي البِجادين رضي الله عنه:

قال ابن إسحاق:

وحدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التَّيمي، أنَّ عَبْدَ الله بن مسعود كان يحدِّث قال:

قُمْتُ من جَوْف الليل، وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فرأيتُ شُعْلَةً من نار في ناحية المعسكر، فاتبعتُها أنظُر إليها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وإذا عبدُ الله ذو البِجَادَين المزنىّ قَدْ مات، وإذا هم قد حَفَرُوا له، ورسول الله ﷺ في حُفرته، وأبو بكر وعمر يُدلِّيانه إليه، وهو يقول: أدْنيا إلىَّ أخاكما، فدلياه إليه، فلما هيأه لشقه قال: «اللهم إني قد أمسيت رَاضِياً عنه، فارض عنه»[(١)].

قال: يقول عبدالله بن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة.

قال ابن هشام: وإنما سُمِّى «ذا البِجَادين» لأنه كان ينازع إلى الإسلام، فيمنعه قومه من ذلك، ويُضيِّقون عليه، حتى تركوه في بِجَادٍ[(٢)] ليس عليه غيرُه.

فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ فلما كان قريباً منه شَقَّ بِجادَه اثنين، فاتَّزر بواحد، واشتمل بالآخر، ثُمَّ أتى رسول الله ﷺ فقيل له «ذو البجادين» لذلك.

---

(١) مجمع الزوائد: ٣٦٩/٩، وقال: رواه البزار عن شيخه عباد بن أحمد العرزمي، وهو متروك، الأولياء ٣٣/١، حلية الأولياء ١٢٢/١، صفوة الصفوة ٦٧٩/١.

(٢) البِجَادُ: الكساء الغليظ الجافي، سُمي بذلك لأنه كان في حجر عمٍّ له يُنفق عليه ويكفله، فلما أراد الإسلام قال له عمُّه: لئن أسلمتَ لأنتزعَنَّ منك كُلَّ شيء صنعتُ إليك. فأبى إلاَّ أن يُسلم، فانتزع منه كُلَّ شيء صنعه به حتى إزار ورداء كانا عليه، فانطلق إلى أُمِّه مُجرَّداً، فقامت إلى بجاد لها من شعر أو صُوف، فقطعته اثنين، فأتزر بأحدهما، وارتدى بالآخر، فلما رآه النبي ﷺ في صلاة الصبح قال له: من أنت؟ قال: أنا عبد العزى - وكان اسمه - فقال له رسول الله ﷺ: بل أنت عبد الله ذو البجادين.

مَن حَبَسهم العُـذْرُ:

وقال رسول الله ﷺ مرجعَه من غزوة تبُوك: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا ولا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلاَّ كَانُوا مَعَكُمْ. قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»(١).

هذه المَعيَّةُ بقلوبهم وهممهم، لا كما يظنُّه طائفةٌ من الجُهَّال أنَّهم معهم بأبدانهم، فهذا محالٌ لأنهم قالوا له: وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة، حبسهم العُذْر».

فكانوا معه بأرواحهم، وبدار الهجرة بأشباحهم، وهذا من الجهاد بالقلب، وهو أحد مراتبه الأربع، وهي: القلب، واللسان، والمال، والبدن

وفي الحديث: «جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ»(٢).

أمْرُ مسجد الضرار:

وأقبل رسول الله ﷺ من تبُوك حتى نزل بذي أوَان، وبينها وبين المدينة ساعة، وكان أصحاب مسجد الضِّرار أَتَوه وهو يتجهز إلى تبُوك، فقالوا: يا رسول الله، إنَّا قد بنينا مسجداً لذي العلَّة والحاجة والليلة المطيرة الشاتية، وإنَّا نُحبُّ أن تأتينا فَتُصَلِّي لنا فيه.

فقال: إني على جناح سَفَر وحالِ شُغْل، ولو قدمنا - إن شاء الله - لأتيناكم فصَلَّينا لكم فيه.

فلمَّا نزل بذي أوان، جاءه خبرُ المسجد من السماء، فدعا مالكَ بن الدُّخْشُم، أخا بنى سَلَمَة بن عوف، ومَعْن بن عدى العجلاني فقال:

انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهلُه، فاهْدماه وحرِّقاه.

---

(١) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٤٠٧١، مسلم - كتاب الإمارة، حديث رقم ٣٥٣٤.

(٢) النسائي - كتاب الجهاد، حديث رقم ٣٠٤٥، أبو داود - كتاب الجهاد، حديث رقم ٢١٤٣، أحمد - باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١١٧٩٨، الدارمي - كتاب الجهاد، حديث رقم ٢٣٢٤.

فخَرجا مُسْرِعَين، حتى أتيا بنى سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدُّخْشم، فقال مالك لمَعْن:

أنْظِرني حتى أخرج إليك بنارٍ من أهلي، ودخل إلى أهله، فأخذ سعفاً من النخل، فأشعل فيه ناراً ثُمَّ خرجا يشتدَّان حتَّى دخلاهُ - وفيه أهله - فحرَّقاه، وهدماه، فتفرقوا عنه.

فأنزل الله عز وجل: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾[1].

الرجوع إلى المدينة:

لَمَّا دنا رسول الله ﷺ من المدينة خرج الناسُ لتلقيه، وخرج النساء والصبيان والولائد يَقُلن:

طَلَعَ البَدْرُ علينا من ثَنيَّات الوداع

طَلَعَ البَدْرُ علينا ما دعَا لله دَاع

وبعض الرواة يَهِمُ في هذا ويقول: إنما كان ذلك عند مَقْدمه إلى المدينة من مكة، وهو وَهْمٌ ظاهر؛ لأن «ثنيَّات الوداع» إنما هي من ناحية الشام، ولا يراها القادم من مكة إلى المدينة، ولا يمرُّ بها إلاَّ إذا توجَّه إلى الشام.

فلما أشرف على المدينة قال: «هذه طَابَة، وهَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه»[2].

---

(١) التوبة: ١٠٧.

(٢) البخاري - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٢٦٧٥، مسلم - كتاب الحج، حديث رقم ٢٤٢٨.

المُخلَّفون عن الغزو:

ولمَّا دخل رسول الله ﷺ المدينة بدأ بالمسجد فصَلى فيه ركعتين، ثُمَّ جلس للناس، فجاءه المخلَّفون، فَطَفقُوا يعتذرون إليه، ويحلفون له.

وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ على نيَّتهم وبايعهم واستغفر لهم، وَوَكلَ سَرَائرِهم إلى الله.

وجاء كعبُ بن مالك، فلما سلَّم عليه تبسَّمَ تَبَسَّم المُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَ

فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟!

فَقُلْتُ: بَلَى، إِنِّي - وَاللَّه - لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِه بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلاً لَكِنِّي - وَاللَّه - لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي، لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ، إِنِّي لأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ

لا وَاللَّهِ، مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ فَقُمْتُ.

وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لِي: وَاللَّه مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُتَخَلِّفُونَ، قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكَ.

فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي

ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ؟

قَالُوا: نَعَمْ رَجُلانِ قَالا مِثْلَ مَا قُلْتَ. فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ.

فَقُلْتُ: مَنْ هُمَا؟

قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ، وَهِلالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ.

فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي، وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلامِنَا أَيُّهَا الثَّلاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ

فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الأَرْضُ فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ.. فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً

فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ وَلا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ.

وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلامِ عَلَيَّ أَمْ لا؟

ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ، مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ، مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلامَ.

فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟

فَسَكَتَ فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَسَكَتَ.

فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ، إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ:

مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ فَإِذَا فِيهِ:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ ولا مَضْيَعَةٍ، فَالحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ».

فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا.

حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الخَمْسِينَ، إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ.

فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟

قَالَ: لا، بَلِ اعْتَزِلْهَا وَلا تَقْرَبْهَا.

وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لامْرَأَتِي: الحَقِي بِأَهْلِكِ، فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الأَمْرِ.

قَالَ كَعْبٌ: فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هِلالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟

قَالَ: لا، وَلَكِنْ لا يَقْرَبْكِ.

قَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا.

فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لامْرَأَةِ هِلالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ.

فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ.

فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلامِنَا.

فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ - قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ - سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ:

يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ، أَبْشِرْ.

قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، وَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلاةَ الْفَجْرِ

فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي، نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ - وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ - وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ، يَقُولُونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ.

قَالَ كَعْبٌ: حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ، حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي. وَاللَّهِ، مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، ولا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ.

قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ -: أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ.

قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟

قَالَ: لا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ.

فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ.

قُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ، وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لا أُحَدِّثَ إِلاَّ صِدْقًا مَا بَقِيتُ.

فَوَاللَّهِ، مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ - مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ - أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلانِي، مَا تَعَمَّدْتُ - مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا - كَذِبًا، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيتُ.

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ: ﴿**لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾[1].

فَوَاللَّهِ، مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ - بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلإِسْلامِ - أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ لا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا - حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ - شَرَّ مَا قَالَ لأَحَدٍ

قَالَ تَعَالَى: ﴿**سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾[2].

---

(١) التوبة: ١١٧، ١١٩ .

(٢) التوبة: ٩٥، ٩٦.

قَالَ كَعْبٌ: وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ، فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ. فَبِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ: ﴿**وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا**﴾ وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خُلِّفْنَا عَنِ الْغَزْوِ، إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ[1].

*****

ذاك شان المخلَّفين عن غزوة تبوك، وتلك قصتهم، ومن أعظم الفوائد وأجلِّها من حديثهم ما رأيناه من نتائج الصِّدق في جميع الأحوال:

- الصِّدق مع النفس: فلا يخدعها ببريق عاجل.

- والصِّدق مع الله: بالمداومة على التوبة والاستغفار.

- والصِّدق مع الناس: فلا يكذبهم، ولا يكون غاشاً في النُّصح لهم.

إنَّ الصِّدق طريقٌ إلى الجنة، كما جاء في الحديث المتفق عليه عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّة، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»[2].

وقد رأينا نتائجَ الصِّدق مع كعب بن مالك وصاحبيه.

وقد قالها كعب لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله، إنَّ الله إنَّما نجَّاني بالصِّدق، وإن من توبتي ألاّ أُحَدِّث إلاَّ صدقاً ما بقيت».

---

(١) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٤٠٦٦، مسلم - كتاب التوبة، حديث رقم ٤٩٧٣.

(٢) البخاري - كتاب الأدب، حديث رقم ٥٦٢٩، مسلم - كتاب البر والصلة والآداب، حديث رقم ٤٧١٩.

وقد جاء نداء الله لأهل الإيمان مُقترنًا بما يدلُّ على عِظَمِ قَدْره وبِرِّ نتائجه؛ ليكونوا - دَائماً - كما أمر الله، مع الصَّادقين.

وكفي لأيِّ متدبِّر أنْ يُخاطِب نَفْسه بنتائج الصِّدْق في حديث القرآن الكريم وبيان السُّنَّة المُطَهَّرَة، وهو يرى الأحداث والوقائع.

إنَّها تُرينا عِظَمَ مقدار الصِّدْق، فبه وعليه تتوقف النَّجاة، فما أنجى الله من أنجاه إلاَّ بالصِّدْق، ولا أهْلَكَ مَن أهْلَكَه إلاَّ بالكذب.

وقد أمر الله - سبحانه - عبادهَ المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾(١).

وقسَّم - سبحانه - الخَلْقَ إلى قسمين: سُعداء، وأشقياء، فجعل السُّعداء هم أهل الصِّدْق والتصديق، والأشقياء هم أهل الكذب والتكذيب

وهو تقسيم مُطَّرد، فالسعادة دائرة مع الصِّدْق والتصديق، والشقاوةُ دائرة مع الكذب والتكذيب.

وأخبر - سبحانه - أنه لا ينفع العبادَ يوم القيامة إلاَّ صدقُهم.

وجعل عَلَمَ المنافقين - الذين تميَّزوا به - هو الكذب في أقوالهم وأفعالهم فجميع ما نَعَاه عليهم أصلُه الكذب، الكذب في القول والفعل.

فالصِّدْق: بريدُ الإيمان ودليلُه ومَرْكَبُه وسائقُه وقائدُه وحِليَتُه ولباسُه، بل هو لُبُّه وروحُه.

والكذب: بريدُ الكُفر والنِّفاق ودليلُه ومركبُه وسائقه وقائده وحليته ولباسُه ولُبُّه.

فمضادّة الكذب للإيمان كمضادة الشرك للتوحيد.

---

(١) التوبة: ١١٩.

فلا يجتمع الكذب والإيمان إلاَّ ويَطْرُدُ أحدُهما صاحبَه ويستقرُّ موضعَه.

والله - سبحانه - أنجى الثلاثةَ بصدقهم، وأهلَك غيرَهم - من المخلَّفين - بكذبهم.

فما أنْعَمَ الله على عبدٍ - بعد الإسلام - بنعمةٍ أفضل من الصِّدْق الذي هو غذاء الإنسان وحياته، ولا ابتلاه ببَليَّة أعظم من الكذب، الذي هو مرض الإنسان وفسادُه.

*****

وقوله تعالى: ﴿**لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[1].

هذا من أعظم ما يُعرِّف العبدَ قَدْرَ التوبة وفضلَها عند الله، وإنَّها غاية كمال المؤمن، فإنه - سبحانه - أعطاهم هذا الكمال بعد آخر الغزوات، بعد أن قضوا نَحْبَهم، وبذلوا نفوسَهم وأموالَهم وديارَهم لله.

وكان غاية أمرهم أنْ تاب الله عليهم.

ولهذا جعل النبيُّ ﷺ يوم توبة كعب خير يوم طَلَعَ عليه منذ ولدته أُمُّه إلى ذلك اليوم.

ولا يَعرفُ هذا - حَقَّ معرفته - إلاَّ من عَرَفَ الله، وعَرَفَ حقوقَه عليه، وعَرَفَ ما ينبغي له من عُبُودية، وعَرَفَ نفسَه وصفاتَها وأمثالَها، وأنَّ الذي قام به من العبودية - بالنسبة لحقِّ ربِّه عليه - كقَطْرَة في بَحْر.

هذا إذا سَلِمَ من الآفات الظاهرة والباطنة.

---

(١) التوبة: ١١٧.

فسبحان من لا يَسَعُ عبادَه غيرُ عَفْوِه ومغفرته، وليس إلاَّ ذلك أو الهلاك.

فإنْ وَضَعَ عليهم عدلَه، فعذَّب أهلَ سماواته وأرضه، عذَّبهم وهو غير ظالم لهم، وإنْ رحمهم فرحمتُه خيرٌ لهم من أعمالهم.

ولا يُنجى أحداً منهم عملُهُ.

وقد تكررت توبتُه عليهم - سبحانه - مرَّتين في أول الآية وآخرها، فإنَّه تاب عليهم - أولاً - بتوفيقهم للتوبة، فلمَّا تابوا تاب عليهم - ثانياً - بقَبولها منهم، وهو الذي وفَّقهم لِفعلها وتفضَّل عليهم بقَبولها.

فالخير كلُّه منْهُ، وبه، ولَهُ، وفي يديه يُعطيه من يشاء إحساناً وفضلاً، ويحرمه من يشاء حكمةً منه وعدلاً.

*****

obeikandl.com